الحياة الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي
(432 ـ 552هـ/ 1040 ـ 1157م)

د/ يمنى رضوان
مدرس التاريخ الإسلامي
جامعة الفيوم – كلية الآداب – قسم التاريخ

obeikan.com

obeikan.com

الحياة الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي
(432 ـ 552هـ/ 1040 ـ 1157م)

مقـــدمة :

تقع مدينـــة بـلـخ[1] Balkh عـلى الضـــفة الغـــربية لنهـــر جيحـــون[2] عـلى رافـــده دهـــس[3]، وتبعـــد عـــن نهـــر جيحـــون [4] بـسـتة وأربعـين

---

(1) بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفي آخرها خاء معجمة . انظر ابن رسته ، أحمد بن عمر : الأعـلاق النفيسـة ، ليدن ، 1891م ، مج 7 ، ص 287 ؛ ياقـوت الحمـوي : معجم البلدان ، تحقـيق فريـد عبد العزيز الجندي ، بيروت ، 1990 ، ج1 ، ص568 ؛ ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمـد : تحفـة النظـار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق أحمد العـوامري ومحمـد أحمـد جـاد المـولى ، القـاهرة ، 1937م، ص 317 .

(2) ابن رسته : المصدر السابق ، 291 ؛ حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزميـة والمغـول ، القـاهرة ، دار الفكر العربي ، 1949 م ، ص 171 .

(3) الإصطخري ، إبـراهيم بـن محمـد الفـارسي الإصـطخري المعـروف بـالكرخي ، "كتـاب مـسالك الممالك"، ليدن ، مطبعة بريل ، 1927 م ، ص 278 ، أبو الفدا ، إسماعيل بن عـلي : تقـويم البلـدان، باريس ، 1840م ، ص 461 . إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يـونس : دائـرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ، د . ت ، مج 7 ، ص 550 .

(4) يبدأ نهر جيحون من بلخ من عيون كثيرة هناك ، وينجلب إليها أنهار عظام، ويخرج نهر جيحون مـن الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم ثم يصب في بحيرة خوارزم ، ويفصل نهر جيحون بين خوارزم وبلاد خراسـان غربًـا وبـلاد بخـارى وسـمرقند وترمـذ شرقًـا ، وعرف نهر جيحون بنهر بلخ ، ونهر اموي ، ونهر أوكسيوس Oxus River ، أما حاليًا فيعرف بنهـر أمو دريا Amu Darya. انظر: ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمـد : وفيـات الأعيـان وأنبـاء =

ميلاً [5] ، وقد وردت عدة مسميات لبلخ على مر العصور ، ففي الكتب اليونانية وردت تحت اسم باكترا Baktra ، وكانت تسمى بالفارسية القديمة باختريش أو باخترا [6]، فقد وردت في النقوش الهخمانشية [7] تحت اسم باختري ، وكلمة "باختر" تعني أساسًا في البهلوية الشمال لأن هذه المدينة كانت تقع في شمال خراسان . وفي الافستا[8] وردت بخذي ، أما في بوندهش [9] البهلوي ، فقد وردت باسم بلخ [10] ، كما وردت في الفهلوية باخل أو بهل [11] ، وكانت تسمى في القديم الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر الأكبر [12] ، ثم سميت

= أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م، مج 5 ، ص 68 ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د . علي عبد الواحد وافي، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م، ج 1، ص349 ، 371 ، ماركبولو: رحلات ماركبولو ، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدان، وترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996م ، ج3 ، ص 249.

(5) www.balkh.com p. 1.

(6) دهخدا ، علي أكبر: لغة نامه ، تهران ، مؤسسة انتشارات وجاب دانشكاه ، 1372 هـ ش ، مج 3 ، ص 4296؛ خورشيد : المرجع السابق ، ص 550 .

(7) نسبة إلى الدولة الهخمانشية التي أقامها الملك كورش والد قمبيز ، وقد حكمت بلاد فارس بعد الدولة الآشورية والبابلية ، وقد استطاع الإسكندر المقدوني أن يهزم دارا الثالث آخر ملوك الأسرة الهخمانشية، أحمد محمود الساداتي: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة، 1979م، ص127 .

(8) " الافستا" وبالعربية الأبستاق هو كتاب الدين الزرادشتي ، وزرادشت هو نبي الفرس ، وقد ظهر في القرن السادس ق . م ؛ نفسه ، ص 128:133.

(9) أبواب وفصول ضمن الافستا .

(10) ابن واعظ البلخي ، عبد الله بن عمر بن محمد بن داود : فضائل بلخ ، ترجمة فارسي عبد الله محمد ابن محمد بن حسين بلخي ، تصحيح عبد الحي حبيب ، إيران ، 1350 هـ ش ، ص 428، 429 .

(11) خورشيد : المرجع السابق ، مج7 ، ص 552 .

(12) فهناك رواية تشير إلى أن الإسكندر الأكبر هو الذي بناها ، ومن المحتمل أن يكون الإسكندر هو الذي أعاد بناءها . انظر: ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 568؛ دهخدا : المرجع السابق، مج 3 ، ص4296 ؛ خورشيد: المرجع السابق، ص 550 .

كوش[13]، وتسمى بلخ باسم نوبهار [14] – ونوبهار[15] هي إحدى الصوامع البوذية في بلخ – [16] . ولقبت بلخ بألقاب عديدة تشير إلى منزلتها بين الدول ، منها لقب "أم البلاد" لأنها أقدم المدن الكبرى في حوض أمودريا [17] ، ولقب الحسناء الذي أطلقه عليها الملك "لهراسب بن كيوخي بن كيكاوس" أحد ملوك خراسان من الأكاسرة [18] كما كان يطلق عليها "قبة[19] الإسلام"[20] ، وعرفت بلخ في المصنفات الفارسية بأكثر من لقب ، فمن ألقابها " شاهواران " وتعني بالفارسية [21] المدينة الملكية الصغيرة [22]

---

(13) ابن الفقيه ، أبو عبد الله أحمد بن محمد الهمذاني: "كتاب البلدان" ، تحقيق يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، 1416 هـ/ 1996م ، ص 616 ، 617 .

(14) مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، القاهرة، 1999م ، ص78.

(15) وتفسير النوبهار: الجديد . لأن سُنة البرامكة كانت إذا بنوا بناءً حسنًا أن يكللوه بالريحان ، يتوخون بذلك أول ريحان يطلع في ذلك الوقت . فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما ظهر من الريحان – وكان البهار – فسمي نوبهار. ابن الفقيه : المصدر السابق ص 617 .

(16) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ، 1968م ، ص186 .

(17) بارتولد ، فاسيلي فلاديمير : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1974 م ، ص161 .

(18) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ، "الكامل في التاريخ" ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1983 م ، ج 1 ، ص 145 .

(19) ربما ترجع هذه التسمية إلى القبة التي بناها البرامكة فوق النوبهار وكانت مائة ذراع في مثلها ، وارتفاعها فوق المائة ذراع ، ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 616.

(20) خواندمير ، غياث الدين بن همام الدين الحسيني : تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، د . م ، 1333هـ ش ، مج 1 ، ص 484 ، 651؛ دهخدا : المرجع السابق ، مج 3 ، ص 4296، ، ربما ترجع هذه التسمية إلى كثرة من بها من المسلمين ، فيقول الإصطخري في المصدر السابق ص 278 : "ومسجدها معمور بالناس على دوام الأيام كلها" ، كما يقول أبو الفداء في المصدر السابق ص461 : "وخرج من بلخ عالم لا يحصى من الأئمة والعلماء والصلحاء" .

(21) وكانت لغة أهل بلخ هي اللغة الفارسية ، وهي مستمرة حتى الآن بجانب لغات الأوزبك والتركمان والباشتو ، انظر : دهخدا : المرجع السابق ، مج 3 ، ص 4296 ؛ محمد عبد الرحمن الشرنوبي و محمد كمال لطفي : الموسوعة المبسطة لدول العالم ، القاهرة ، 1997م ، ص 148 .

(22) خورشيد : المرجع السابق ، مج 7 ، ص 550 .

تعد بلخ من أشهر وأجلّ مدن خراسان [23] حتى أن أحد أرباع خراسان [24] سُمي باسمها ، فهي إحدى حواضر خراسان الأربع [25] . كما أن نهر جيحون عرف بنهر بلخ [26] وبلخ مدينة تاريخية عريقة ، لها شأن عظيم منذ القدم ، فقد كانت مقرًّا لحُكم خراسان سواء قبل الإسلام أو بعده [27]، فقد كانت مقرًّا لبعض حكام خراسان من الأكاسرة [28] ، وكانت بلخ عاصمة إمبراطورية باكتريا Bactria القديمة التي أصبحت ولاية باختر لعهد الهخامنشيين ، وكانت تضم في عهد داريوش [29] العديد من المدن التي من ضمنها ولاية مرغيانا (مرو) ، ثم أصبحت بلخ بعد فتوحات الإسكندر عاصمة لدولة باكتريا اليونانية، وبذلك نجد أنه في العهد الذي كانت فيه منطقة آسيا الوسطى كلها تخضع لحاكم واحد كانت بلخ هي عاصمة تلك المنطقة كلها [30]. وكان البرامكة [31] - قبل اعتناقهم الإسلام [32] - يقيمون في بلخ [33].

---

(23) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 568 ؛ البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع ، بيروت ، 1992 م ، مج 1 ، ص 3172 .

(24) يضم ربع بلخ عدة مدن هي : بلخ - الترمذ - الجوزجان - الصغانيان - الفارياب - القواذيان ، قحطان عبد الستار الحديثي : أرباع خراسان ، البصرة ، 1990م ، ص 388: 444.

(25) حواضر خراسان الأربع هي : بلخ- مرو- هراة - نيسابور. الإصطخري: المصدر السابق، ص253، 254؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، 1976م، ص85.

(26) ابن الفقيه: المصدر السابق ، ص 619؛ ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج1 ، 568 .

(27) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 47 ، 52 .

(28) أمثال الملك لهراسب بن كيوخي بن كيكاوس ، ثم ابنه بشتاسب الذي تنازل له والده عن حكم خراسان لانشغاله بالعبادة . ابن الأثير : الكامل ، ج 1 ، ص 145 ، 154 ، 155 .

(29) "داريوش " أحد ملوك فارس من سلالة الأخمنيين ، اغتصب الإسكندر الأكبر مملكته بعد انتصاره عليه أكثر من مرة ، لويس معلوف "المنجد في اللغة" ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ص 186 .

(30) بارتولد : المرجع السابق ، ص 161 .

(31) كان لبرمك سادن النوبهار- بيت النار- ببلخ المكانة العليا أيام الفتح العربي. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، 1980، ج2، ص 53، 54؛ خورشيد : المرجع السابق، مج 7، ص551.

(32) بدأ أهل بلخ يدينون بالإسلام على المذهب السني منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان نظرًا لمجهودات القائد قتيبة بن مسلم الذي قضى على الوثنية الإيرانية وغرس تعاليم الإسلام . انظر ، ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 617 ، 618 .

(33) دهخدا : المرجع السابق ، ص 4296 .

استمرت بلخ مقرًّا لولاة خراسان بعد فتحها ، فأقام فيها الأحنف بن قيس[34] زمن الخليفة عثمان بن عفان ، وفي العصر الأموي ، اتخذها أسد بن عبد الله القسري (117 - 120 هـ / 735 - 738 م) سنة 118هـ (736م) حاضرة له ونقل إليها الدواوين واستمر بها حتى توفي فيها سنة 120 هـ (738م) [35] ، وفي سنة 389هـ (998م) اتخذ محمود بن سبكتكين الغزنوي مدينة بلخ دار ملك له وذلك عند استيلائه على خراسان [36] . ومما يؤكد أهمية بلخ أيضًا أن صاحب بريد بلخ الغزنوي عندما شن السلاجقة هجومًا على بلخ أرسل إلى السلطان مسعود الغزنوي (421 هـ - 432 هـ / 1030 - 1040 م) [37] سنة 431هـ (1039م) يطلب منه إرسال قائد محنك من "غزنة" [38] على رأس جيش

---

(34) تمكن المسلمون بزعامة "الأحنف بن قيس" من فتح" بلخ" صلحًا سنة 22هـ وقيل سنة 18 هـ وذلك زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، لم يستمر أهل بلخ على ولائهم للمسلمين ، لهذا أرسل الخليفة عثمان بن عفان إليهم حاكم البصرة عبد الله بن كريز وأرسل على مقدمته الأحنف بن قيس وذلك سنة 31هـ ، وما إن وصل الأحنف بن قيس إلى بلخ حتى صالحه أهلها ، فاستقر بها ، إلا أن أوضاع بلخ اضطربت في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، فأرسل إليها عبد الرحمن بن سمرة الذي تمكن من فتحها وكورها، إلا أن الفتح الحقيقي لمدينة بلخ تم سنة 86 هـ / 705م في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي حرص على تثبيت نفوذ العرب في هذه المنطقة ، فأرسل إليها العديد من القوات العسكرية تحت قيادة "قتيبة بن مسلم الباهلي" ، الذي ظفر بفيروز بن كسري يزدجرد حيث افتتح خراسان . انظر: ابن رسته : المصدر السابق ، ص287 ؛ ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص417؛ ابن الأثير: الكامل ج3 ص 13 : 17 ، ص 49 ، 50 ؛ حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي 21 - 447هـ ، القاهرة ، دار الفكر العربي، 1968م ، ص 124 ، 125.

(35) البلاذري ، أبو الحسن : فتوح البلدان ، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية، 1403 هـ/ 1983م، ص 417؛ ابن الأثير: الكامل ، ج 4 ، ص 225 ، 234 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، 311، 312.

(36) كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر ضمن ممتلكات السلطان محمود الغزنوي ، أقوى حكام المشرق الإسلامي في ذلك العصر. عصام الدين عبد الرءوف الفقي : " الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي " ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1999 م ، ص 139 .

(37) ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ، 196 .

(38) "غزنة" بفتح الغين وسكون الزاي المعجمتين وفتح النون، ولاية من أعمال الباميان والمسافة بينهما نحو ثمان مراحل ، وتقع مدينة غزنة في طرف خراسان وأول بلاد الهند ، وهي كالحد بين خراسان والهند، أبو الفدا: المصدر السابق ، ص466 ، 467 .

لحماية "بلخ" من السلاجقة ، ومن العبارات التي جاءت في الرسالة تؤكد مكانة بلخ "أن خراسان كلها مرتبطة بها . . . ولو أن الأعداء استحوذوا عليها لذهبت ريحنا إلى الأبد"[39] .

ونظرًا لمكانة بلخ وموقعها الاقتصادي ، فقد حرص السلاجقة[40] على بسط سيطرتهم عليها ، لهذا قاد جُغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق (ت 451هـ/ 1059م) جيشًا كبيرًا إليها ، وطلب من أهلها تسليم مدينتهم إلا أنهم رفضوا وتصدوا له بمساعدة العيارين[41] الذين استقدموهم من الريف ، كما أرسل صاحب بريد بلخ أميرك البيهقي إلى السلطان مسعود الغزنوي يطلب منه أن يرسل إليهم قائدًا محنكًا على رأس جيش من غزنة للحفاظ على بلخ ، فأسرع السلطان مسعود بإرسال التونتاش الحاجب على رأس ألف فارس إلا أن داود بن ميكائيل تصدى له وهزمه قبل أن يصل إلى "بلخ" وذلك سنة 432هـ / 1040 م[42] ، وعاد داود السلجوقي مرة ثانية إلى بلخ في نفس السنة وتمكن من الاستيلاء عليها ، في أيام مودود[43] بن مسعود الغزنوي[44] .

---

(39) البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب ، صادق نشأت ، القاهرة ، 1956 م ، ص 710 .

(40) كان "السلاجقة" يقيمون في مدينة جند بالقرب من بخارى وكانوا يتميزون بالقوة وكثرة العدد ، فخشيهم الملك محمود بن سبكتكين وألقى القبض على أرسلان بن سلجوق ثم أمر السلاجقة بعبور نهر جيحون وفرقهم في نواحي خراسان . ابن الأثير : الكامل ، ج8 ، ص 22 .

(41) " العيارين" طائفة من الرجال الأشداء ظهرت في بغداد في أواخر القرن 2هـ ، ثم انتشرت في بلاد المشرق ومهمتها حراسة الطرق وأخذ الأتاوى من القوافل العابرة مقابل توصيلها سالمة ، محمود عرفة محمود : الحركات المناوئة للدولة الصفارية وأهمية النقود التي ضربها زعماء هذه الحركات في تحقيق بعض النواحي التاريخية لهذه الدولة . بحث منشور في مجلة كلية الآداب ، العدد 56 ، جامعة القاهرة 1992 م . ص 194.

(42) البيهقي : المصدر السابق ، ص 695، 709 ، 711 ، 717 .

(43) لما لقي السلطان مسعود بن محمود (421 - 432 هـ/ 1030 - 1040 م) مصرعه ، استقر الحكم من بعده لابنه مودود (432 - 441 هـ/ 1040 - 1049م)، رشيد عبد الله الجميلي : دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ، 1984 ، ص 208 ، 209 .

(44) بطرس البستاني : كتاب دائرة المعارف ، بيروت ، دارالمعرفة ، 1876. مج 5 ، ص 552 .

لم يهنأ السلاجقة بالاستقرار في بلخ ، فما إن آل حكم بلخ إلى إياز بن ألب أرسلان [45] حتى أسرع خاقان التكين صاحب سمرقند بتجهيز جيشٍ كبيرٍ للاستيلاء على "بلخ". وذلك في شتاء 465 هـ / 1072 م منتهزًا فرصة وفاة السلطان ألب أرسلان ، وخروج حاكمها "إياز بن ألب أرسلان" إلى الجوزجان[46]، ولما علم أهل بلخ بذلك أرسلوا إلى خاقان التكين يطلبون منه الأمان فأمنهم فخطبوا له فيها، إلا أن "إياز" عندما سمع بما حدث أسرع بالعودة من الجوزجان إلى بلخ فوصلها غرة جمادى الأولى سنة 466هـ / 1073م وما إن وصلها حتى أطاعه أهلها[47]

وخلال عهد السلطان سَنجر[48] (ت 552 هـ / 1157 م) - آخر السلاجقة الكبار - حرص السلطان "أتسز بن قطب الدين محمد بن نوشتكين"[49] خوارزم شاه على بسط سيطرته على أملاك السلاجقة ، ولتحقيق هذا الهدف استعان بقبائل

---

(45) لما قتل السلطان ألب أرسلان محمد بن جغري بك داود سنة 465هـ / 1072م ، آل الحكم إلى ابنه ملكشاه ، فأسند إلى أخيه إياز أرسلان بن ألب أرسلان حكم بلخ ، فاستمر يحكمها حتى توفي سنة 466هـ / 1073 . ابن الأثير: الكامل ، ج 8 ، ص : 112 ، 119 .

(46) "الجوزجان" مدينة بخراسان مما يلي بلخ يقال لها جوزجانان ، والنسبة إليها جوزجاني . ابن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب ، ضبطه وحققه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2000 م. ج1 ، ص 209.

(47) ابن الأثير : الكامل، ج 8 ، ص 113 : 119.

(48) ولد سنجر في مدينة سنجار 479هـ / 1086م وحكم مدة 61 سنة منها عشرون سنة ملك خراسان وحدها ، ثم إحدى وأربعون سنة كان ملكًا على العالم ، وكانت مدة حياته اثنان وسبعون عامًا ؛ الراوندي : راحة الصدور ص 278 ، 279.

(49) تنسب الدولة الخوارزمية (470 - 628 هـ / 1077 - 1231 م) إلى نوشتكين أحد الأتراك الذي كان عبدًا لأحد أمراء السلاجقة ، وقد أرسله هذا الأمير إلى بلاط السلطان ملكشاه ، فشغل وظيفة الساقي ثم أخذ يترقى في سلك الوظائف لمهارته ، وقد حرص نوشتكين على إعداد ابنه محمد ليتولى المناصب المهمة في الدولة السلجوقية المتداعية ، وبالفعل أسند إليه أحد قادة السلطان السلجوقي بركياروق حكم إقليم خوارزم ولقبه خوارزم شاه وذلك سنة 490 هـ / 1096 م ، من هذا نرى أن محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية. عصام الدين : المرجع السابق ، ص 159؛ حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق ، ص 25 ، 317 .

الخطا [50] التي اندفعت في سنة 536 هـ/ 1141 م إلى بلاد ما وراء النهر واستطاعوا أن يوقعوا بالسلطان سَنجر وجنوده هزيمة منكرة [51]، ثم جاءت نهاية السلاجقة في بلخ على يد الأتراك الغز الذين دخلوا بلخ ونهبوها وقتلوا الفقهاء والكثير من أهلها [52] وعلى رأسهم "قماج" حاكم مدينة بلخ وابنه، وتمكنوا من أسر السلطان سنجر وأرسلوه إلى العاصمة " مرو" وفرضوا عليه حراسة مشددة منهم ، واستمر السلطان سنجر لدى الغز لمدة عامين ، ثم نقل إلى مدينة "بلخ" ومنها استطاع الهرب والتف حوله رجاله وحاشيته وجيش خراسان ، فقاده وسار نحو مدينة مرو عاصمة ملكه ودخلها [53] إلا أنه لم يلبث أن توفي سنة 552هـ/ 1157م [54]. وبوفاة السلطان سَنجر استطاعت الدولة الخوارزمية[55]، بسط سيطرتها على جميع ممتلكات الدولة السلجوقية في خراسان وأنهوا حكمهم في تلك البلاد [56].

---

(50) "الخطا" قبائل وثنية كانت تقيم في الصين ، وقد تمكن علاء الدين محمد خوارزم شاه (596 - 617/ 1199 - 1219م) من القضاء على الدولة القراخطائية سنة 601هـ/ 1204م عصام الدين : المرجع السابق، ص164؛ رشيد الجميلي : المرجع السابق ص 239 .

(51) حافظ أحمد حمدي: المرجع السابق ، ص 64 ، 65 .

(52) الذهبي، الحافظ شمس الدين الذهبي، " كتاب دول الإسلام" تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1974، ج2 ، ص63 .

(53) الراوندي ، محمد بن علي بن سليمان : "راحة الصدور وآية السرور" ، نقله من الفارسية إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة ، 1960 م، ص 270 ، 278 .

(54) اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة السلطان سنجر فمنهم من قال إن الوفاة حدثت سنة 552هـ مثل ابن الأثير : الكامل ، ج 9 ، ص 55 ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 69 ؛ والمقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي "النقود الإسلامية" المسمى بـ "شذور العقود في ذكر النقود"، تحقيق وإضافات محمد السيد علي بحر العلوم ، النجف ، المكتبة الحيدرية ، 1387هـ/ 1967 م، ص 274 ؛ ومنهم من قال إن الوفاة كانت سنة 551 هـ مثل الراوندي : المصدر السابق ، ص270، 278؛ وخواندمير : المصدر السابق ، ص 513 .

(55) يعد أيل أرسلان بن أتسز (551 - 568 هـ/ 1156 - 1172 م) أول سلاطين الدولة الخوارزمية المستقلين . حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق ، ص 64 .

(56) الراوندي : المصدر السابق ، ص 270 ، 278 ؛ رشيد الجميلي : المرجع السابق ، ص 240.

تتميز فترة حكم السلاجقة عن غيرها من الفترات السابقة ، نظرًا للمستحدثات التي استحدثها السلاجقة في خراسان ، فعلى سبيل المثال ألغى السلاجقة الأوائل فكرة الحاكم الواحد صاحب السلطة المطلقة ، وكانوا يرون أن الإمبراطورية ملك لجميع أفراد الأسرة الحاكمة ، فنرى أن الخطبة كانت تلقى في آن واحد باسم طغرل في بعض مدن خراسان وباسم أخيه داود في البعض الآخر منها مثل بلخ ، وقد كان هذا النظام أحد العوامل التي ساعدت على نمو بلخ اقتصاديًا ، نظرًا للتنافس الحضاري بين بلخ وبين مدن السلاجقة الأخرى .

الأحوال الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي :

ازدهرت الأحوال الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي في شتى المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، ومما يؤكد هذا أن أهالي مدينة "بلخ" من جميع الطبقات والفئات – سواء من العسكريين أو الحرفيين – كانوا يعيشون بلا عناء أو مشقة [57] ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على رخاء العيش .

وهناك عوامل عديدة أدت إلى ازدهار الأحوال الاقتصادية في مدينة بلخ ، من أبرزها حرص السلاجقة على استقرار أحوال مدينة بلخ السياسية ، ووفرة إنتاج هذا الإقليم ، ومهارة سُكانه في استغلال ما لديهم من ثروات طبيعية .

الزراعة:

وجدت في بلخ مقومات عديدة أدت إلى انتعاش الزراعة منها كثرة الأنهار [58] المستخدمة في ري الأراضي ، فمن أنهار "بلخ" التي تجري في ربضها [59] نهر يسمى

---

(57) البلخي : المصدر السابق ، ص 49 : 51 .

(58) ومما يدل على كثرة الأنهار في بلخ ، أن الأنهار المحفوفة بالأشجار كانت تتخلل الشوارع ، المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله البشاري "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 1411 هـ / 1991 م ، ص 301 ، 302 .

(59) ربض المدينة : وجمعها أرباض ، ولها عدة معانٍ منها الناحية أو القسم أو الضاحية من المدينة أو ما حولها أو في وسطها . ولكن الجغرافيين الاجتماعيين والمهتمين بتخطيط المدن يطلقون هذا الاصطلاح للدلالة على جزء معين من المدينة له اختصاصاته المتميزة ، كالمنطقة التجارية خاصة تلك التي لا يخترقها شارع رئيسي ، وإنما يلتف حولها ـ أو حول جزء منها – الطريق العام ، فلا =

دهاس [60] وهو نهر مياهه وفيرة يدير عشرة أرحية [61] وبعد أن يديرها يمر على أحد أبواب مدينة بلخ وهو باب النوبهار [62] ويسقي رساتيقها [63] إلى "سياه جرد" [64] في طريق "ترمذ" [65] . وفي أرض بلخ نهر عظيم ينبع من العيون الحلوة والأحجار النظيفة [66] ، فهو يخرج من حدود "الباميان" [67] ثم يتفرع قرب بلخ إلى اثني عشر فرعًا ، ويدخل

= يسهل الوصول إليها إلا سيرًا على الأقدام . يوسف توني : معجم المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1964 م ، ص 236 ؛ ويُعرف "معلوف" الربض في كتابه المنجد ، ص 245 ، بأنه ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

(60) أحد روافد نهر جيحون ، خورشيد : المرجع السابق ، مج 7 ، ص 55 .

(61) أبو الفداء ، المصدر السابق ، ص 461 ؛ القلقشندي ، أبو العباس أحمد : "كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا" ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د . ت ، ج 4 ، ص395 . و"الرحاء" هي الأداةُ التي يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قُطب .(ج) أرحاء وأرحية . المعجم الوجيز ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، 1991م ، ص 259 .

(62) "باب النوبهار" هو أحد أبواب السور الذي كان يحيط بربض بلخ ، وعرف هذا الباب بهذا الاسم نسبة إلى منازل البرامكة التي كانت توجد في ربض بلخ والتي كانت تعرف باسم نوبهار ، كما كان يوجد معبد النوبهار الذي كان الفرس والترك يحجون إليه وسدانته للبرامكة ، انظر : ابن رسته : المصدر السابق ، مج 7 ، ص 288 . المقدسي : المصدر السابق ، ص 302؛ ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج1 ، ص568 .

(63) رستاق معرب كلمة روستا ، وهي كلمة فارسية ، وتنطق روستاك ـ رسداق ـ رزداق ومعناها قرية، ج رساتيق ، وتستخدم حاليًا بمعنى بلوك والبلوك هو مجموعة قرى وتطلق على بعض القرى والبلدان . دهخدا : المرجع السابق ، مج 25 ، ص 395 .

(64) سياه كرد قرية في منتصف الطريق بين ترمذ وبلخ . بارتولد : المرجع السابق، ص 161 .

(65) كي لسترنج : "بلدان الخلافة الشرقية" ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1985 م ، ص 463 .

(66) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 49 .

(67) مدينة "الباميان" هي إحدى مدن بلخ وتقع على جبل بين بلخ وغزنة ، وللباميان بلاد منها كابل وجرا وفراون وغزنة وبنجهير ، وتبعد الباميان عن بلخ مسافة عشر مراحل .انظر : ابن رُسته : المصدر السابق ، ص289 ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ص 466 ، 467 .

بلخ [68] ، ومما ساعد على خروج هذه الأنهار من جبل الباميان ارتفاع هذا الجبل [69] ومجرى الماء في كل مكان نظيف ولا يختلط بالكبريت والأملاح المعدنية والملح العادي[70]، لهذا كانت بلخ تستعمل مياه النهر وفروعه الاثني عشر في سقي مزارعها وبساتينها [71]

فكانت معظم المدن المضافة إلى بلخ تروي أراضيها من الأنهار التي تمر بها ، فعلى سبيل المثال امتازت مدن "الباميان" بكثرة ما بها من أنهار، وكانت مدينة بذخشان[72] – الواقعة على نهر "جرياب" من غربيه – تروي أراضيها منه ومن الأنهار التي بها ، أيضًا كانت مدينة "طُخارستان" [73] – وهي من الكور التابعة لبلخ – تروي أراضيها من مياه النهر الذي يمر بها ، أما مدينة "بنجهير" [74] فكانت تستخدم مياه النهرين اللذين يمران بها وهما نهر اندراب و نهر كاسان في ري أراضيها [75] .

لم تقتصر طرق الري على الأنهار ، فالقرى والمدن التي لا توجد فيها أنهار أو الأنهار بعيدة عنها ، كانت تستفيد من مياه العيون في ري مزارعها وبساتينها ، وأحيانًا كان

---

(68) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، 78 .

(69) ابن رُسته : المصدر السابق ، ص 289 .

(70) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 49 .

(71) مؤلف مجهول: المصدر السابق، 78؛ دهخدا: المرجع السابق، مج 3 ، ص 4296 .

(72) "بذخشان" مدينة مشهورة تقع في أعلى إقليم طخارستان، ومن بذخشان إلى بلخ نحو ثلاث عشرة مرحلة ، المقدسي : المصدر السابق ، ص 303؛ أبو الفدا: المصدر السابق 471 .

(73) "طخارستان" بضم الطاء المهملة وفتح الخاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون وهو إقليم يقع وراء نهر بلخ وهو نهر جيحون ويضم العديد من المدن ، وإقليم طخارستان من مضافات بلخ أي من المدن التي تضاف إلى بلخ وبلخ من خراسان ، أبو الفداء المصدر السابق ، ص 471 . أما الإصطخري فيتحدث في ص 254 عن طخارستان فيقول : "وأفردنا طخارستان عن بلخ وإن كانت مجموعة إليها لأنها مفردة في الذكر والدواوين ، فيقال بلخ وطخارستان وليس في تفريقنا هذه الكور وجمعها درك أكبر من استيعابها ومعرفة كل شيء منها في صورة خراسان". الإصطخري : نفس المصدر، ص 254 .

(74) "بنجهير" بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم وكسر الهاء وسكون المثناة من تحت وفي آخرها راء مهملة ، مدينة من نواحي بلخ ، تقع على جبل ، وهي من أعمال "الباميان" ، أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 468 ، 469 .

(75) الإصطخري : المصدر السابق، ص 279 .

الفلاحون يستخدمون مياه الأنهار والعيون معًا في ري الأراضي ، فعلى سبيل المثال كانت أراضي مدينة "الختل" [76] الواقعة بين نهر وخشاب ونهر بذخشان ويسمى جرياب [77] ، والتي كانت تضم أكثر من ألف عين ماء [78] ، كانت تستخدم الأنهار والعيون في ري أراضيها ، وفي مدينة "الباميان" توجد عيون ماء تخرج من جبل "الباميان" كما يخرج الكثير من الأنهار إلى بلخ ، فيمر منها أكثر من وادٍ [79] فكانت مدينة "الباميان" أيضا تستخدم مياه الأنهار والعيون في ري أراضيها.

ووصف المقدسي بلخ وأنهارها فقال : "انظر إلى بهاء بلخ . . . وكثرة أنهارها والتفاف شجرها وصفاء مائها . . . وكثرة الخضر واختراق الأنهار المحفوفة بالشجر في المحال والمنازل وقرب الجبال والأودية ومرافقها" [80] .

ومما ساعد على ازدهار الزراعة في "بلخ" أنها مدينة مستوية [81] الأرض [82]، كما أنها تتميز بخصوبة التربة ، ويتضح لنا ذلك من سرعة نمو المحاصيل ، فيقول ابن واعظ

---

(76) "الختل" بضم الخاء والتاء مشددة، وذكرت في بعض المصادر باسم ختلان ، وهي من أعمال بلخ ، ومن مدن الختل هلاورد - لاوكند وهما مدينتا الوخش ، كربنك - تمليات - هلبك - سكندرة - منك ، وتعد منك أكبر مدن الختل ، انظر: الإصطخري : المصدر السابق، ص 276 : 279 ؛ ابن الاثير : اللباب ، ج 1 ، ص 284 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 461 .

(77) الإصطخري : المصدر السابق، ص 276 : 279 .

(78) قحطان عبد الستار الحديثي: "دراسات في التنظيمات الاقتصادية لخراسان في القرن الرابع للهجرة" مجلة الخليج العربي ، البصرة ، 1987م ، مج 19 ، العدد 3 ، ص 69 ، 70 .

(79) ابن رُسته : المصدر السابق ، ص 189 .

(80) المقدسي : المصدر السابق ، ص 301 ، 302 .

(81) تعني خلو الأرض من الظاهرات التضاريسية الكبرى ، فيقال أرض مستوية وإقليم مستوٍ وما إلى ذلك . يوسف توني : المرجع السابق ص 467 .

(82) الإدريسي ، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، القاهرة ، د . ت ، ص 483.

البلخي : "إذا زرعت أي شجرة أو نباتًا تجده ينمو ويثمر سريعًا" [83] ، وتتميز جميع أراضي مدن الختل بأنها مستوية وعلى غاية الخصب [84] .

لهذا كله كانت بلخ تعد من أكثر مدن خراسان خيرًا وأوسعها غلة [85]

ومما ساعد على زيادة الرقعة الزراعية في بلخ حرص السلاجقة على استصلاح أراضي "بلخ" ، فأقطعوا [86] الأراضي التي لا مالك لها لأقاربهم وجنودهم وكبار رجال دولتهم ، فعلى سبيل المثال ، أقطع السلطان ألب أرسلان "بلخ" لأخيه "سليمان بن جُغري بك داود" وذلك سنة 458هـ / 1065 م ، وفي سنة 466هـ / 1073م أقطع السلطان ملكشاه "بلخ" و"طخارستان" لأخيه "شهاب الدين تكش" [87] ، كما انتشر في عهد السلاجقة نظام "الإقطاع العسكري" ويعني توزيع كثير من الأراضي على الجند بدلا من المرتبات أو كجزء منها ، ونلاحظ أن هذا النظام لم يكن منتشرًا في النصف الشرقي من العالم الإسلامي قبل الغزو التركي ، لقد وقعت قبل ذلك بعض الحالات الاستثنائية لبعض المتميزين في الخدمة العسكرية ، وهذه الحالات تكاد تكون نادرة للغاية ، وقد دفع ذلك الوزير "نظام الملك" إلى القول : "إن الملوك السابقين لم يوزعوا أقطاعًا البتة بل كانوا يدفعون أرزاق جنودهم نقدًا

---

(83) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 ، 49 .

(84) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 461 .

(85) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 568 .

(86) لم يكن نظام الإقطاع مقصورًا على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة بل أحيانًا يشمل ولاية بأكملها . وقسم فقهاء المسلمين الإقطاع إلى قسمين : القسم الأول : إقطاع تمليك وفيه تتنازل الدولة عن جزء من الأراضي التابعة لها إلى بعض الأفراد ، وتكون هذه الأرض إما عامرة أو موات، وتعني الأراضي البور وأراضي المستنقعات غير المزروعة ، والهدف من ذلك تشجيع الناس على استصلاح الأراضي البور ، وزيادة الرقعة الزراعية باستصلاح الأرض الموات ، أما القسم الثاني فهو إقطاع استغلال، وفيه تمنح الدولة بعض الأراضي إلى الأفراد سواء أمراء أو وزراء أو أجناد أو غيرهم مقابل أن يدفع المقطع مبلغًا معينًا ، والهدف أن يعمل المقطعون على المزيد من عمارة الأرض لأنهم أقدر على ذلك من الدولة . انظر : القلقشندي ، المصدر السابق ، ج 13 ، ص 104 ، 115 ؛ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 1939 م ، ص 270 ، 273 ؛ راشد البراوي : في الاقتصاد الإسلامي ، مصر ، دار الحرية ، 1986 ، ص19 : 21 ، 118 .

(87) ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 103 ، 119 .

وحسب" . وكان هذا النظام الأخير لا يزال متبعًا على أيامه في دولة الغزنويين ، أما في دولة السلاجقة فإن منح الأقطاع كان أمرًا مألوفًا ولكنه لم يؤدِّ إلى قيام نظام رقيق الأرض ، ويُذَكِّر "نظام الملك" أصحاب الأقطاع بأن ما سمح لهم به هو جزء من ريع الأرض وأن حقهم لا يمتد وراء ذلك إلى أرواح الأهالي أو أموالهم أو نسائهم أو أولادهم [88] . وربما أدى نظام الإقطاع هذا إلى ازدهار الزراعة لحرص هؤلاء المقطعين على ازدهار إقطاعاتهم .

أدى توزيع الأقطاع إلى زيادة أهمية ونفوذ أصحاب الضياع بخراسان الذين عرفوا باسم الدهاقنة ، فقد أطلق اسم الدهاقنة على من تسلموا أقطاعًا من بين الأتراك ، وقد أطلق هذا اللقب (الدهقان) [89] على "جُغري بك داود" – قبل أن يلي حكم بلخ [90] – عندما منحه الملك "مسعود بن محمود بن سبكتكين" ولاية "دِهستان" [91]

---

(88) بارتولد : المرجع السابق ، ص 453، 454 .

(89) يبدو أن اصطلاح دهقان قد ساد في آخر أيام الدولة الساسانية وأنه بقي في العصور الإسلامية ، ولفظ دهقان يعني رئيس القرية ، وجمعه دهاقين وهم الرؤساء وملاك الأراضي والقرى، "وقد كانت وظيفة الدهاقين الأصلية أن يتسلموا الضرائب ، وإليهم يعود الفضل خاصة في أن الدولة القليلة الخصب قد استطاعت بوجه عام أن تتحمل النفقات التي اقتضتها المعيشة المترفة في بلاط الملك ، وأن تقدر على الحروب التي تتطلب تكاليف باهظة من غير أن ينوء بها هذا العبء" . أرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، مراجعة د. عبد الوهاب عزام ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، 1998م ، ص 99 ، 100 ، 546 .

(90) سبب هذا الإقطاع أن السلاجقة انتصروا على الغزنويين سنة 432 هـ/ 1040م فأرسل إليهم الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين الغزنوي يتوعدهم فيه وأمرهم بالرحيل إلى مدينة آمل الشطا الواقعة على نهر جيحون ، وأغراهم بالخلع النفيسة والإقطاعات فأقطع مدينة دهستان لداود ومدينة نسا لطغرل بك ، ومدينة فراوة لبيغو ولقب كل واحد منهم بالدهقان .ابن الأثير : الكامل ، ج8 ، ص 23 ، 24 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 455 .

(91) "دهستان" : بكسر الدال المهملة والهاء وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون ، مدينة مشهورة عند مازندران. ابن الأثير ، اللباب، ج 1، 349.

وقد تميزت بلخ بكثرة المحاصيل الزراعية [92] وتنوعها ، فيقول ابن الفقيه : "وبلخ لا تخلو أرضها من الثمار الكثيرة والزروع العميمة" [93] ، ومما يزرع في بلخ من المحاصيل ذات الأهمية الغذائية الأترج [94] والنارنج [95] ، وهما فاكهتان من الفواكه الغالية لندرتهما في ذلك الوقت ، لهذا كانتا ضمن الفواكه التي تقدم للناس في الاحتفالات [96]

ومن المحاصيل التي اشتهرت بلخ بزراعتها قصب السكر [97] ، والعنب الطيب الذي كان يزرع بوفرة فكان الكروم يحيط بجميع جوانب بلخ [98] ، فقد اشتهر العديد من المدن التابعة لبلخ بزراعة الكروم مثل طخيرستان وبذخشان [99] ، كما اشتهرت بلخ بزراعة السمسم والأرز والجوز واللوز [100] ، والكركم [101] ، وسائر التوابل ، والتين والرمان والبرتقال وسائر الحمضيات ، وكافة أنواع الخضروات [102] . وامتازت

(92) المقدسي : المصدر السابق ، ص 301 .

(93) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 603 .

(94) الأترج و الأترنج : بضم الهمزة وسكون التاء وضم الراء وتشديد الجيم ، ويقال له ترنج ، بضم التاء والراء وسكون النون ، هو ثمر من جنس الليمون و شجره قصير ، وورقه أكثر استطالة واستدارة لدى قمته من ورق الليمون . معلوف : المرجع السابق ، ص 2 ؛ إبراهيم محمد نجا ، فقه اللغة العربية ، القاهرة ، دار النيل للطباعة ، 1957 م ، ص 91 .

(95) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ دهخدا : المرجع السابق ، ص 4296 .

(96) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003م ، ج 2 ، ص 223 .

(97) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ دهخدا : المرجع السابق ، ص 4296 .

(98) الإدريسي : المصدر السابق ، ص 483 .

(99) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 .

(100) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 .

(101) كي لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 .

(102) الحديثي : أرباع خراسان ، ص 391 .

مدينة الطايقان[103] بزراعة القمح والفواكه [104]، وفي مدينة سمنجان [105] تكثر الثمار [106].

أما عن أهم المحاصيل التي تستخدم في الصناعة في بلخ فهي عديدة منها نبات النيلوفر [107]، والنيلوفر نبات زهوره بيضاء وزرقاء وصفراء، فهو نبات مائي ينمو في برك المناطق المعتدلة وله زهور صفراء وتعوم أوراقه على سطح الماء، وكانت زهوره تستخدم كدواء في بعض الأحيان [108]. كما اهتم أهل بلخ بزراعة الكثير من الأعشاب الطبية التي بلغ من كثرتها أن شبه ابن واعظ البلخي "بلخ" بأنها كانت تبدو كأنها دكان للعطارة [109]. وأيضًا من المحاصيل المستخدمة في الصناعة قصب السكر والعنب والسمسم [110]، ويستخرج من السمسم زيت السيرج [111]. ونظرًا لكثرة المحاصيل فقد أدى هذا إلى رخص الأسعار [112].

---

(103) "الطايقان" بفتح الطاء المهملة وسكون الألف وبالياء آخر الحروف وفتح القاف وفي آخرها نون بعد الألف وهي بليدة بنواحي مدينة بلخ من كور طخارستان، أبو الفدا: المصدر السابق، ص472، 473.

(104) الإصطخري: المصدر السابق، ص 279.

(105) "سمنجان" بكسر السين المهملة والميم وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون مدينة من طخارستان بنواحي بلخ. أبو الفدا: المصدر السابق، ص 472، 473.

(106) المقدسي: المصدر السابق، ص 303.

(107) الإصطخري: المصدر السابق، ص 280.

(108) حسن أنوري: فرهنك فشرده، طهران، انتشارات سخن، 1382هـ ش، مج 2، ص 2519، 2520.

(109) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 50.

(110) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 78؛ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: "التبصر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة" تصحيح وتعليق حسن حبشي عبد الوهاب التونسي، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1994م، ص 29.

(111) البراوي: المرجع السابق، ص 33.

(112) المقدسي: المصدر السابق، ص 301.

أما عن البساتين ، فنجد أنها كانت تحيط بكل جوانب "بلخ" [113] ، فيقول المقدسي في وصف بلخ : "انظر إلى بهاء بلخ . . . والتفاف شجرها" [114] ، ويصفها أبو الفدا فيقول : "والبساتين في جميع جهات بلخ تحتف بها " [115] وهناك مدن عديدة مضافة إلى "بلخ" تنتشر بها البساتين ، فعلى سبيل المثال طخارستان العليا وطخارستان السفلى [116] يقول عنهما الدمشقي إنهما تعدان من جائزة البلاد لكثرة مابهما من أشجار وأنهار [117] ، وامتازت مدينة الطايقان [118] بأن بها أشجارًا في غاية الخصب [119] ، أيضًا امتازت مدينة قباذيان [120] ، ومدينة فارياب [121] بكثرة بساتينهما [122] ويقول المقدسي عن مدينة خست [123]. "وخست

---

(113) الإصطخري: المصدر السابق ، ص 278 ؛ القلقشندي : المصدر السابق، ج4، ص395 .

(114) المقدسي : المصدر السابق ، ص 302 .

(115) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 461 .

(116) يوجد في"طخارستان العليا" العديد من البلاد مثل الختل ويسمى الختلان ومدينة منكت وهي قصبة الختلان ، ومن المدن التي بها أيضًا أشجرد وهي قصبة البدخشان وهنك والباميان ، أما مدن طخارستان السفلى فهي سمنجان وبغلان وخلم ورداليز واسكلكند. الدمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب، "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر"، د . م . ، 1923 م ، ص 224.

(117) الدمشقي : المصدر السابق ، ص 224 .

(118) "الطايقان" أو طالقان طخارستان مدينة ما زالت قائمة ، وينبغي أن لا يلتبس اسمها مع طالقان الجوزجان . لسترنج : المرجع السابق ، ص 470 .

(119) نفسه .

(120) "قباذيان" بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف وذال معجمة مكسورة وفتح المثناة التحتية وألف ونون ناحية من نواحي بلخ ويقال لها أيضًا قواذيان وبالدال المهملة أيضًا. أبو الفدا: المصدر السابق، ص445.

(121) " الفارياب " بفتح الفاء وسكون الألف وفتح الراء المهملة والياء المثناة من تحتها وسكون الألف الثانية وفي آخرها خاء معجمة، مدينة صغيرة بنواحي بلخ. أبو الفدا: المصدر السابق، ص460، 461.

(122) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 445 ، 461 .

(123) "خوست" بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو والسين المهملة وفي آخرها تاء ، من أعمال بلخ ويقال لها خست أيضًا، وهي بليدة صغيرة بين أندرابة وطخارستان، نفسه، ص453 .

نزهة مشجرة خصبة" كما يقول عن مدينة أندرابة [124] ": وأندرابة لها أودية مشجرة"[125] .

أما الإصطخري فيقول إن كل المدن الموجودة بنواحي الباميان "ذوات أنهار وأشجار وثمار" وامتازت مدن الختل بأنها كلها ذوات أشجار وهي في غاية الخصب اتسمت أيضًا مدينة "بنجهير" بكثرة البساتين [126] .

يرتبط بالإنتاج الزراعي الإنتاج الحيواني ، فتتميز بلخ بتوافر الثروة الحيوانية ، فمن عناصر الثروة الحيوانية المهمة في القسم الشرقي من العالم الإسلامي البقر والجاموس والغنم والماعز والإبل والخيل والبغال [127] . فاشتهرت بلخ بأَنْفَس الدواب وبالبقر والغنم ، حتى إن الإصطخري يقول : "وأكثر السوائم [128] بخراسان من الإبل بناحية بلخ" ، ثم يقول : "أنفس الدواب ما يرتفع من نواحي بلخ"[129] ، كما كانت بلخ تشتهر بالجمال ذات السنامين وكان يقال لها الجمال البخت وهي أفضل من كل ما عداها [130] نظرًا لسرعة عدوها [131] ووجدت ماشية كثيرة في "سمنجان" [132] ، أما "غزنة" فاشتهرت بجودة لحوم أغنامها ، فيقول الإصطخري : "وخير لحمان الغنم ما يجلب من بلاد الغزية" [133] ، وهذا يرجع لغنى مراعي "بلخ" .

---

(124) "أندراب" بفتح الهمزة وسكون النون ثم الدال وراء مهملتين وألف وفي الآخر باء موحدة من نواحي بلخ، من كور طخارستان وتقع بين غزنة وبلخ . ويقال لها أندرابة. الإصطخري : المصدر السابق ، ص279 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق، ص 462 ، 463 .

(125) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(126) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ، 280 .

(127) البراوي : المرجع السابق ، 37 .

(128) "السائمة" والسوام (ج) سوائم هي الماشية والإبل الراعية ، معلوف : المرجع السابق ، ص376 .

(129) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(130) نفسه ، ص 280 ؛ البراوي : المرجع السابق ، ص 39 ؛ آدم متز : المرجع السابق ، ج2 ص 255 .

(131) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 265 .

(132) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(133) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 282 .

وقد انفردت "بذخشان" بالشهرة دون غيرها من جميع مقاطعات المجرى الأعلى لنهر بلخ بمراعيها الجيدة وكثرة الدواب الموجودة على جبالها وخاصة الخيل والبغال [134] أما "طخارستان" فتشتهر بالبرذون [135] الطخاري المشهور والبغال[136] ، كما اشتهرت " الختل" بالخيل [137] ، والبغال وبكثرة الدواب حتى أنها كانت تصدر منها إلى المدن الأخرى ، ومدينة "الختل" هي أصل البراذين الختلية[138] .

كان للثروة الحيوانية أثر بليغ على الجانب السياسي خلال العصر السلجوقي ، وذلك عندما كان الحشم الغز[139] - الذين كان مقام معظمهم ومرعاهم بولاية ختلان من أعمال بلخ - يسلمون لرئيس الطباخين في "مرو" خراجًا قدره أربعة وعشرون ألف رأس من الأغنام سنويًا من أجل ولائم السلطان سنجر صاحب خراسان ، غير أنهم امتنعوا ذات مرة - وذلك في أواخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة - (1153م) عن إرسال الأغنام [140] ، ولما

---

(134) بارتولد : المرجع السابق ، ص 147 ؛ محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر : "مراكز التجارة في آسيا الوسطى" منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، 2000م ، ص 351 .

(135) البرذون دابة الحمل الثقيلة ، التركي من الخيل ، مفرد برذونة والجمع براذين ، معلوف : المرجع السابق ، ص 30 .

(136) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 91 .

(137) معلوف : المرجع السابق ، ص 173 .

(138) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ؛ الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 91، 92 .

(139) كان الغز فرسان من التركمان دخلوا البلاد مع السلطان ولم تكن لديهم رغبة في أن يبدلوا أسلوب معيشتهم الرعوية ليصبحوا حضرًا ، وكان عمال الدولة الإيرانيون يريدون ضم وحدات الرعاة إلى "حشم" السلطان وإخضاعهم لنفس النظام الذي سار عليه من قبل حرس السلاطين السابقين. المؤلَّف من المماليك والمرتزقة ، وكانت وحدات التركمان العسكرية مصدرًا من مصادر الاضطراب الدائم للدولة ، إلا أن الدولة لم تتخذ ضدهم إجراءات مشددة ، لخدمتهم لها ولرابطة الرحم التي تجمعهم مع أهل البيت المالك. بارتولد : المرجع السابق، ص 456؛ الراوندي : المصدر السابق ، ص 268.

(140) يرجع سبب امتناعهم إلى سوء معاملة مبعوث رئيس الطباخين لهم ومجادلته لهم في الغث والسمين من الأغنام فقتلوه .

قدم والي بلخ الأمير قماج إلى "مرو" وعلم بما حدث من الغز وازدياد نفوذهم ، طلب من السلطان سنجر - سلطان العالم - أن يسند إليه مهمة رئاستهم ومباشرتهم نظرًا لسيطرتهم وازدياد نفوذهم ، فوافق السلطان ، ولما عاد الأمير قماج إلى بلخ أرسل شخصًا إلى الحشم الغز وطلب الأغنام الباقية ، فرفضوا[141] وطردوا رسول "قماج" ، فغضب والي بلخ الأمير قماج وتوجه لمحاربتهم إلا أن النصر كان حليفهم ، وقتلوه هو وابنه "ملك الشرف"، فاتجه إليهم السلطان سنجر بن ملكشاه ، وحاربهم فانتصر الغز وتعقبوا السلطان حتى ألقوا القبض عليه في مرو ونكلوا بالأعيان والأشراف في كل مدينة من مدن خراسان [142] .

التعدين والصناعة :

يرجع ازدهار الصناعة في بلخ إلى مقومات عديدة منها وفرة الثروة المعدنية اللازمة لمختلف الصناعات ، والأيدي العاملة التي تتميز بالمهارة ، فقد كانت أرض بلخ زاخرة بالخيرات والمنافع والثروات المعدنية ، ففيها مناجم الذهب الخالص الصافي والفضة ، بعضه من الجبل والبعض الآخر من النهر ومن إحدى نواحي بدخشان التي لها شهرة عالمية [143] .

(أ) الذهب :

يوجد على نهر بلخ أجود أنواع الذهب [144] . ومن المدن التي اشتهرت باستخراج الذهب مدينة الختل ، فعلى نهر "وخاب" توجد مكانس الذهب الذي يستخرج من النهر على هيئة قطع صغار أشبه برؤوس الإبر ، ومن سيول الأودية القادمة من وخان[145] ، وكان

---

(141) وسبب رفضهم أنهم كانوا يرون أنهم عبيد السلطان شخصيًا، ولن يقبلوا غيره حاكمًا عليهم .

(142) خواندمير: المرجع السابق، مج 2؛ ص511 ، 512 ؛ الراوندي : المصدر السابق، ص 268.

(143) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(144) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 619 .

(145) "وخان" تقع في شرق بذخشان في أعلى جيحون في طريق التبت ، بينها وبين التبت مسافة قريبة تبلغ ثمانية عشر يومًا . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 352 .

معاش أهالي بعض القرى مقصورًا على انتظار الأمطار الربيعية ، فإذا جاءت كونت سيولاً تجرف معها الرمال التي تحتوي على الذهب [146] . أيضًا اشتهرت "بنجهير" [147] و"بذخشان" بتوافر معدن الذهب بهما [148] .

(ب) الفضة :

يوجد معدن الفضة بوفرة في مدينة بنجهير - بنواحي بلخ - حيث عرف جبل بنجهير بجبل الفضة ، ويتحدث الإصطخري عن جبل بنجهير فيقول : "وفي هذا الجبل من أوله إلى آخره معادن الفضة والذهب [149] ، ويقول المقدسي : "وبنجهير هي جبل الفضة" [150] ويقول أبو الفدا : "جبل الفضة وهو بنجهير" وكان أهل بنجهير حريصين دائمًا على البحث عن الفضة ، فكان هذا هو شغلهم الشاغل حتى إنهم "جعلوا السوق كالغربال لكثرة الحفر" ويصف لنا أبو الفدا طريقة بحث الأهالي عن الفضة فيقول : "وإنما يتبعون عروقًا يجدونها تفضي إلى الفضة وهم إذا وجدوا عرقًا حفروا أبدًا إلى أن يصيروا إلى الفضة فينفق الرجل منهم الأموال الكثيرة في الحفر ، فربما خرج له من الفضة ما يستغني هو وعقبه ، وربما خاب عمله لغلبة الماء وغير ذلك ، وربما وقف الرجل على العرق ووقف آخر عليه بعينه في موضع آخر فيأخذان جميعًا في الحفر ، والعادة عندهم أن أي من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي إليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا يعمله الشياطين ، وإذا سبق أحد الرجلين بقي الآخر وقد ذهبت نفقته هدرًا ... فنرى الرجل يصبح وهو صاحب ألف ألف ويمسي ولا شيء عنده، ويصبح وهو فقير ويمسي وقد ملك ما لا يضبط حسابه" [151] . ولا تزال بنجهير مشهورة

---

(146) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 119.

(147) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 281 .

(148) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48؛ عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص267 .

(149) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 281 .

(150) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(151) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 464 .

حتى الآن بمعادن الفضة ، وتعتبر بنجهير لعهدها بها أغنى معادن الفضة بالقسم الشرقي من العالم الإسلامي [152] .

وقد أدى وجود جبل الفضة في "بنجهير" إلى كثرة الدراهم الفضية حتى أصبحت لا حصر لها وكان أهلها "لا يشترون ولو باقة بأقل من درهم" [153] . ويقول المقدسي : "والدراهم بها واسعة أقل ما توجد المقطعة" [154] .

ومن المدن الأخرى التي وجد بها معدن الفضة مدينة جارباية [155] - وهي من رساتيق بلخ - حتى إن أهل جارباية كان مقامهم على تلك المعادن [156] ، ووجد معدن الفضة في مدينة أَندرابة - وهي من نواحي بلخ - وتقع مدينة أندرابة في شعب جبال وبها تجمع الفضة التي تقع من جارباية [157] ، كما وجد معدن الفضة في الجبال الممتدة من بنجهير إلى أندرابة وبذخشان والصاعدة إلى التبت مارة بوخان وبروان وشجلي [158] . أيضًا وجد هذا المعدن الثمين في أودية مدينة بغلان [159] ، وكانت هذه الأودية في سفوح جبل بنجهير الشمالية [160] .

---

(152) آدم متز : المرجع السابق ، ج2 ، ص 236 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 149 .

(153) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 469 .

(154) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(155) وتقع "جارباية" على نهر "بنجهير" حيث يشق النهر وسط جارباية . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 350 ، 351 .

(156) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 ؛ الحديثي : أرباع خراسان ، ص 404 .

(157) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279.

(158) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 115 .

(159) بغلان بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفي آخرها نون ، وهي بلدة بنواحي بلخ . ابن الأثير : اللباب ، ج1 ، ص 114 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 447 .

(160) لسترنج : المرجع السابق ، ص 469.

(جـ) اللازَورد[161] :

وجد هذا المعدن في العديد من المدن مثل : بنجهير وجارباية [162] ، وفي مدينة الباميان من رساتيق بلخ [163] ، كما يجلب اللازورد من جبال بَذخَشان [164] ، وكان أهل بلخ يستخدمون اللازورد في نقوش مبانيهم نظرًا لكثرته [165] .

معادن أخرى :

وهناك العديد من المعادن التي اشتهرت بها "بلخ" مثل اللعل وهو صنف من أصناف الياقوت [166] ، ويسمى (بيجاذيا) [167] ، ووجد حجر البجاذي في كور الباميان كما وجد في "بذخشان" [168] . كما وجدت معادن كثيرة في "بلخ" وفي جبل الباميان ، مثل النحاس والرصاص [169] ، والزئبق [170] ومن المعادن التي اشتهرت بها "بلخ" أيضًا الكبريت والملح والخشب [171] ، والزرنيخ [172] أما القار [173] فوجد في أودية الختل [174] .

---

(161) اللازورد : معدن مشهور يتولد بجبال أرمينية وفارس وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة أو خضرة وله منافع في الطب . معلوف : المرجع السابق ، ص 753 ، 754 .

(162) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص117 .

(163) الدمشقي : المصدر السابق ، ص 224 .

(164) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 147؛ عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 267.

(165) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 317 .

(166) الحديثي : أرباع خراسان ، ص391 .

(167) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص117 .

(168) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279؛ الدمشقي : المصدر السابق ، ص 224 .

(169) ابن رُسته : المصدر السابق ، ص 289 ؛ ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(170) ابن رُسته: المصدر السابق ، ص 289 .

(171) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(172) لسترانج : المرجع السابق ، ص 472 .

(173) "القار" و "القير": مادة سوداء تطلى بها السفن والإبل وغيرها وقيل هو الزفت، معلوف : المرجع السابق ، ص 308 ، 705.

(174) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص116 .

اشتهرت بذخشان بمعادن أخرى عديدة مثل البلور و حجر البازهر وحجر الفتيلة، وهو يوضع في مادة دهنية فيضيء كما تضيء الفتيلة ولا ينقص[175] ، وقد سمي حجر الفتيلة لأنه كان يستعمل في إضاءة المنازل أي : فتيلة للمصابيح[176].

وكان يوجد في بلخ عمال مَهَرة في استخراج المعادن وصقلها وصناعتها ، ويعرف هؤلاء العمال باسم المحصلين ، وربما كان هذا الاسم نسبة إلى استحصالهم المعادن من أحجارها ، ولم تقتصر مهمة المحصلين على ذلك فقط وإنما كان فيهم من له خبرة بالمواد الكيماوية لتنقية المعادن ومعرفة أصولها[177] . ولم تقتصر مهارة أهل بلخ على هذا المجال وإنما كان لديهم مهارة في كافة الصناعات[178] .

ازدهرت الصناعة في مدن بلخ العديدة ، فكانت هناك صناعات مختلفة مثل الصناعات المعدنية والجلدية وصناعة المنسوجات ، فمن الصناعات المعدنية التي اشتهرت بها بلخ صناعة الفصوص والخواتم من الأحجار الكريمة وصناعة صياغة الجواهر، وذلك نظرًا لغنى الدولة بالمعادن الثمينة كالذهب والفضة[179] ، ومن المدن التي اشتهرت بها هذه الصناعة "بذخشان"[180] . وهناك صناعات معدنية أخرى مثل صقل المصنوعات الحديدية كالسيوف والدروع[181] .

أما عن صناعة المنسوجات فاشتهرت بلخ بصناعاتها[182] وخاصة المنسوجات المرصعة بالجواهر[183] وذلك لتوافر معدني الذهب والفضة بها ، أما فيما يتعلق

---

(175) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 ؛ عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص267 .

(176) آدم متز : المرجع السابق ، ج2 ، ص 238 .

(177) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص119 .

(178) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 52 .

(179) عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1975م ، ص 168؛ محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 351 .

(180) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 351 .

(181) الحديثي : أرباع خراسان ، ص 392 .

(182) لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 .

(183) ذكر ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار ، ص 317 ، 318 أن زوجة أمير بلخ داود بن علي باعت ثوبًا مرصعًا بالجوهر من ثيابها لبناء مسجد وزاوية ورباط ، وقيل إنه تبقى بعد ذلك مقدار ثلث ثمنه .

بالصناعات الجلدية ، فقد اشتهرت بلخ بدباغة وصناعة الجلود ، وذلك لتوافر ما لديهم من ثروة حيوانية أشرنا إليها من قبل ، ومن الصناعات الأخرى صناعة الزيوت ومشتقاتها ، فقد تضمنت صناعات بلخ صناعة زيت السيرج [184] ، وصناعة الصابون والطيوب والأدهان [185] ، ووجدت صناعات أخرى عديدة في بلخ مثل صناعة الزبيب وصناعة السمن والعسل المصنوع من العنب والتين ولب الرمان [186] والصناعات الكيماوية مثل الأبخرة والأدوية والعقاقير والمصل ، والصناعات الخشبية [187] ، وقد تنوعت الصناعات الخشبية من أدوات منزلية وأثاث منزلي نظرًا لكثرة الأشجار [188] . ووجدت أيضًا صناعة الروائح العطرية وذلك نظرًا لتوافر نبات النيلوفر والزهور [189] .

التجارة :

(أ) التجارة الداخلية:

كانت التجارة تمثل إحدى الدعائم الاقتصادية المهمة في "بلخ" والتي ازدهرت بفضل وفرة منتجاتها الزراعية والصناعية علاوة على الثروة الحيوانية . ولقد راجت حركة التجارة الداخلية في أسواق "بلخ" التي وجدت بوسط المدينة [190] ، حول المسجد الجامع [191] ، كما وجدت أسواق على مداخل "بلخ" حول أبوابها الرئيسية . وكانت تلك الأسواق عامرة بكافة أنواع السلع ، وارتبطت بأحياء "بلخ" المختلفة [192] .

---

(184) البراوي : المرجع السابق ، ص 33 .

(185) "الدُّهن" مادة في الحيوان والنبات دسمة جامدة في درجة الحرارة العادية ، وإذا سالت كانت زيتًا. (ج) أدهان ودهان ، المعجم الوجيز ، ص 236 .

(186) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 ؛ لسترانج : المرجع السابق ، ص 472 .

(187) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 128 ، 132 ، 133 .

(188) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 268 .

(189) ي. هل: الحضارة العربية ، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة، كتاب الهلال، 1979م، ص107.

(190) لسترنج : المرجع السابق ، ص 462 .

(191) الإصطخري : المصدر السابق ، 278 .

(192) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 ، 53 .

وحفلت مدن "بلخ" بالأسواق العامرة التي وجدت في "هلاورد" و"منك" ، ومدينة "لاوكند" - وهي من أكبر مدن الختل - [193] ، كما انتشرت الأسواق في مدينة شومان من مدن الوخش [194] - والوخش [195] بلدة بنواحي بلخ - والطالقان ، وأندرَابة [196] ، وبنجهير [197] . وكثرة الأسواق [198] تبرهن على كثرة الإنتاج الزراعي والنشاط الصناعي في "بلخ" .

ومما ساعد على انتعاش التجارة الداخلية في بلخ اتساع طرقها [199] ، وسهولة الانتقال بين مدنها المختلفة ، مما ساعد على نقل البضائع في سهولة ويسر ، ومن الطرق التي ربطت بلخ بمدنها المختلفة :

- طريق يربط "بلخ" بمدينة "خُلم" [200] .
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "بغلان" .
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "مذر" .
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "أشبورقان " [201] .

---

(193) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 276 ، 279 .

(194) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 350 ، 351 .

(195) "الوخش" بفتح الواو وسكون الخاء وبعدها شين وهي بلدة بنواحي بلخ من ختلان . ابن الأثير : اللباب ، ج2 ، ص 427.

(196) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(197) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص469 .

(198) لم تذكر لنا المصادر التاريخية أو الجغرافية المتاحة بعض المعلومات المهمة مثل أنواع تلك الأسواق وموعد انعقادها .

(199) المقدسي : المصدر السابق ، ص 302 .

(200) "خلم" بضم الخاء المعجمة وسكون اللام وبالميم بلد من بلاد بلخ ، وخلم على عشرة فراسخ من بلخ . أبو الفدا ، المصدر السابق ، ص 447 .

(201) المسافة من بلخ إلى "خلم" يومان ، ومن بلخ إلى "بغلان" ستة أيام ، ومن بلخ إلى "مذر" ستة أيام أيضًا ، ومن بلخ إلى "أشبورقان" ثلاثة أيام . الإصطخري : المصدر السابق ، ص 283 ، 286 .

هذا بالإضافة إلى الطرق التي كانت تربط مدن "بلخ" بعضها ببعض [202] .

(ب) التجارة الخارجية :

أصبحت بلخ بموقعها المتميز مركزًا تجاريًا هامًا لوقوعها على الطرق والممرات البرية والنهرية حيث تلتقي عندها التجارات العالمية والمنتجات المختلفة .

وقد ارتبطت بلخ بالعديد من الطرق العالمية ، فمنها ما يمر داخل أراضي خراسان ومنها ما يمر بالطرق الخارجية ، أما عن الطرق التي تربط بلخ بالمدن المختلفة بخراسان ، فقد وجد طريق يربط بين بلخ ومرو [203] ، كما ارتبطت بلخ من خلال موقعها في وسط خراسان بمدن المشرق الهامة كفرغانة [204] ، والري ، وسجستان ، وقشمير ، وخوارزم ، والملتان ، وكرمان ، وكابل ، وقندهار [205] . فهي تقع على أبعاد متساوية من كافة الحدود الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية لمنطقة خراسان [206] ، مما ساعد على شهرة بلخ التجارية .

أما عن الطرق التجارية العالمية ، فقد ارتبطت بلخ بالعديد منها ، فمثلا ارتبطت بلخ ببلاد الهند بصلات تجارية قوية ، وأصبحت بلخ مركزًا لتجميع بضائع الهند [207] حيث ساعدت سهولة الانتقال بينهما على هذا الازدهار التجاري ، ويقول المقدسي عن بلخ : "إنها متجر السند" وإن بها "تجارات مفيدة" [208] ، أما ابن واعظ البلخي، فيقول عن بلخ: "إن من شمائلها أنها كانت مجمع الخلائق ومركز القوافل وهو ما لا تشهده أي مدينة فيما عدا مكة في موسم الحج" [209] .

---

(202) نفسه ، ص 283 ، 286 .

(203) المسافة من مرو إلى بلخ 126 فرسخًا ، ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 616 .

(204) "فرغانة" بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وبعد الألف نون ، وهي ولاية وراء الشاش وراء جيحون وسيحون . ابن الأثير : اللباب ، ج 2 ص 171.

(205) المسافة من بلخ إلى كل مدينة من المدن المذكورة أعلاه في المتن ثلاثون مرحلة. ابن رُسته ، المصدر السابق ص 287 ، 288 .

(206) بارتولد: المرجع السابق، ص 161 .

(207) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ البستاني : المرجع السابق ، ص 551 .

(208) المقدسي : المصدر السابق ، ص 302 .

(209) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 47 ، 48 .

كانت بلخ مركزًا ووسيطًا تجاريًّا عالميًّا بين بلاد ما وراء النهر والهند، عن طريق المجاري العليا لنهر السند ومنه إلى بلاد التبت [210]، وقد وصف لسترنج هذه الطرق التي ربطت بينها بقوله: "عبر جبال البامير التي كانت بداية الطريق الهندي العظيم للتجارة، أو ما يسمى طريق التوابل حيث كانت بلخ تتوسط طريق الحرير، وتعتبر في الوقت نفسه رأس جسر للطريق المؤدي إلى داخل الهند، وأنطاكية، ودمشق، وروما" ثم يتابع سيره إلى مدينة القوافل "مرو"[211]. ومن مراكز التجارة أيضًا "بذخشان" إذ كانت القوافل التجارية تخرج من آسيا الوسطى إلى الهند عن طريق بذخشان لأنها تقع على طريق التجارة القادم من التبت في المجرى الأعلى لنهر جيحون، كما كانت بذخشان تتصل ببلاد القنوج من الهند [212].

وهناك مدن عديدة تميزت بالتجارة منها "غزنة" و"كابل"، ويقول الإصطخري عن غزنة: "وليس في هذه المدن التي في نواحي بلخ أكثر مالاً وتجارة من غزنة فإنها فرضة الهند" [213]، كما يقول عن مدينة كابل - وهي من عمل الباميان -: "وهي فرضة الهند أيضًا" [214].

وكانت بلخ من المدن الهامة التي تقع على طريق الحرير العظيم [215]، وقد أدى

---

(210) "تبت" بضم التاء وفتح الباء، بلاد متاخمة للصين من إحدى جهاته وللهند من أخرى. انظر: القزويني: المصدر السابق، ص79؛ محمد عبد العظيم: المرجع السابق، ص 351.

(211) لسترنج: المرجع السابق، ص 472، 474، محمد عبد العظيم: المرجع السابق، ص 354.

(212) محمد عبد العظيم: المرجع السابق، 351، 354.

(213) فرضة النهر بضم الفاء ثلمته التي يستقي منها وفرضة البحر أيضًا محط السفن، محمد بن أبي بكر ابن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1328 هـ/ 1910م، ص524.

(214) الإصطخري: المصدر السابق، ص 280.

(215) يعد طريق الحرير العظيم طريق التجارة العالمي في العصور الوسطى، وهو الممتد من الصين إلى البحر المتوسط حيث مدن أوروبا. ومن البضائع النفيسة التي تُحمل في هذا الطريق الحرير الذي انفردت الصين بإنتاجه. ولم تكن مهمة هذا الطريق التبادل التجاري فقط بل كان طريقًا لانتقال الحضارات، فقد انتقل من خلاله استعمال الخيول والجمال ذات السنامين من المشرق إلى العالم. عصام الدين الفقي: المرجع السابق، ص270، 271. محمد عبد العظيم: المرجع السابق، ص330.

موقعها هذا إلى ازدهارها وانتعاشها نظرا لانتظام الحركة في طريق الحرير [216] مما سهل عملية الرواج التجاري بها ، بل جعلها مقرًّا لالتقاء التجار من كل صوب ، ويقول لسترنج إن هذا الطريق أقدم خط تجاري يربط بين آسيا الوسطى ومدن أوروبا [217] . ويبدأ طريق الحرير من المدائن على نهر دجلة ويمر بعد المدائن بجبال زغروس إلى همدان ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر ثم تعبر بلاد تركستان حيث سوق الحرير وتتجه جنوبًا إلى الشرق حتى تصل إلى "هسيان - فو" وهي بلاد الحرير [218] وهناك طريق يخترق خراسان إلى بلخ ثم يعبر نهر جيحون إلى ترمذ [219] وبالإضافة إلى سهولة الطرق البرية والنهرية بين بلخ وغيرها من البلاد - كما رأينا - توافرت لديها وسائل عديدة لنقل البضائع منها الجمال البلخية ذات السنامين [220] التي كانت ضمن دواب مطايا تجار طريق الحرير [221]، وكانت هذه الوسيلة لا تقل أهمية عن السفن النهرية.

فقد كان يتم نقل البضائع أيضًا عن طريق السفن النهرية عبر نهر جيحون ، فكانت السفن تقوم بنقل آلاف الأغنام عن طريق نهر جيحون [222] ، وكان نهر جيحون يستخدم كوسيلة نهرية لنقل البضائع طوال السنة عدا ثلاثة شهور كان يستخدم خلالها كوسيلة برية وذلك لأنه يجمد في فصل الشتاء لمدة ثلاثة أشهر ، فتعبر عليه القوافل بدوابها وأثقالها [223] . ويصف لنا ابن فضلان نهر جيحون فيقول : "وجَمَدَ نهر جيحون من أوله إلى

---

(216) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 271 .

(217) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص330 ، 331 ، 335 .

(218) نقولا زيادة : "معجم المصطلحات الجغرافية" ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1964 م ، ص 220 .

(219) لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 ، 474 ، محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 354 .

(220) وكان هذا النوع من الجمال- الذي اشتهرت به بلخ- يعرف بالجمال البخت ، وكانت النوق البخاتي الموجودة في بلخ مقدمة على سائر البخت . انظر : عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص265، 270 ؛ البراوي : المرجع السابق ، ص 39 .

(221) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(222) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 .

(223) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 68 .

آخره وكان سمك الجَمَد سبعة عشر شبرًا ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل فأقام على ذلك ثلاثة أشهر" [224] .

وكان يوجد ببلخ العديد من الحمامات لخدمة التجار الأجانب الوافدين على بلخ[225]، وكان هؤلاء التجار يصلون إلى بلخ من كافة الأنحاء ، ومعهم الكثير من البضائع ، ويروج البيع والشراء ويحقق التجار أرباحًا كثيرة ، فكانت هناك قوافل تجارية تصل إلى بلخ بصفة دورية كل سنة من الهند محملة بالعقاقير الطبية ، والعطور مثل العود والكافور وغيرها ، والحلوى الشهية مثل السكر والسكر الأبيض ، والأقمشة النفيسة من جميع الأشكال والأنواع ، والجواري الجميلات ، والغلمان ممشوقي القوام ، الذين كان التجار يحضرونهم من ناحية التركستان ، لما لديهم من مواصفات تؤهلهم للعمل في الجندية منها الشجاعة والقوة الجسمانية والخشونة والغلظة [226] كما كانت بلخ تستورد الأحجار الكريمة والمجوهرات الثمينة ، والحرير الفرغاني [227] وتعد الحرائر من أهم السلع التي يتاجر فيها أهل بلخ بصورة واسعة [228] .

وكانت بلخ تستورد من "كابل" الإهليلج[229] الكابلي الكبار[230] كما كانت تستورد

---

(224) ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد : رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ ـ 921م ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 2006 م ، ص 33 ، 34 .

(225) حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق ، ص 172 .

(226) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 276 .

(227) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 51 .

(228) البستاني : المرجع السابق ، ص 551 .

(229) الإهليلج : شجر ينبت في الهند وكابل والصين ، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار ، المعجم الوجيز ، ص 29 .

(230) ابن رسته : المصدر السابق ، ص 291.

السمك الصغير المملح ـ المعروف باسم الطّريخ – من بحيرة "وان" بأرمينية [231] وكان مدخل القوافل إلى بلخ من مدينة "أندراب" الواقعة بين "بلخ" و"غزنة" [232]

أما من حيث الصادرات ، فكانت بلخ تزخر بالمنتجات النباتية وبالموارد المعدنية المختلفة مما شجع التبادل التجاري بين بلخ وغيرها من المدن ، فنظرًا لكثرة غلة بلخ نجد أنها كانت تصدرها إلى جميع مدن خراسان وخوارزم [233] ، ومن أهم صادرات بلخ الأُترج (النارنج) والنيلوفر وقصب السكر [234] والعنب [235] نظرا لما لديها من فائض . كما كانت بلخ تصدر اللوز والجوز والسمسم و الزبيب والسمن وعسل الشمسي من العنب والتين ولب الرمان والكبريت والرصاص والزرنيخ والصابون والجلود [236] ، واشتهرت مدينة "بذخشان" بتصدير حجر البجاذي واللازورد ، ولم تقتصر صادرات بلخ على المحاصيل الزراعية والمعادن فقط وإنما اشتهرت بلخ أيضًا بتصدير النوق البخاتي [237] – الجمال ذات السنامين – [238] وذلك نظرًا لسرعتها واستخدامها في الكثير من الأعمال وعلى رأسها نقل البريد وحركة النقل السريع بين المدن [239] ويقول الإصطخري : "أنفس الدواب ما يرتفع من نواحي بلخ" [240] ، وتشتهر "الخُتل" بتصدير الدواب إلى سائر البلاد نظرًا لكثرتها لديها [241] .

---

(231) آدم متز : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 229 .

(232) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 463.

(233) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص568.

(234) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(235) الجاحظ : المصدر السابق ص 29 .

(236) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 .

(237) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(238) البراوي : المرجع السابق ، ص 39 .

(239) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 265 .

(240) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 282 .

(241) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 350.

التجـار :

من الجدير بالذكر أن تجار بلخ حظوا بمكانة رفيعة ، وكان لهم دور كبير في الحفاظ عليها أثناء التطورات السياسية التي عصفت بالمدينة ، فعلى سبيل المثال دفع التجار مقدارًا من المال لشمس الملك بن طمغاج خان ليمنع رجاله من القراخانيين[242] من إحراق مدينة "بلخ" ، وقد كان ذلك خلال الصراع بين السلاجقة والقراخانيين ، فقد انتهز "شمس الملك بن طمغاج خان" فرصة خروج "إياز بن ألب أرسلان" حاكم بلخ منها ودخلها مع جيشه سنة 465 هـ/ 1072م، فانتهز بعض الأهالي فرصة خروجه من "بلخ" وهجموا على إحدى فرق جنده الأتراك، فأمر رجاله بإحراق بلخ إلا أن تجار بلخ كان لهم دور فعال في إنقاذها[243]

ووصل بعض التجار إلى أعلى مناصب الدولة خلال العصر السلجوقي نظير خدماتهم للدولة ، فعلى سبيل المثال أسند السلطان سنجر (ت 552هـ/ 1157م) إدارة ولاية بلخ وتحصيل أموالها إلى "تغار بيك محمد بن سليمان الكاشغري" [244] ، ثم ولي منصب الوزارة في بلخ ، وقد كان يعمل بالتجارة في بداية حياته [245] .

التنظيمات المالية :

اهتم السلاجقة اهتمامًا كبيرًا بزيادة موارد بلخ ، وقد نجحوا في تحقيق ذلك ، فازدهرت وانتعشت الحالة الاقتصادية في عهد السلاجقة ، فكان مزارعو بلخ يحصلون

---

(242) القراخانيون كانوا في سمرقند وترمذ وهم أول أسرة تركية تحكم بلاد ما وراء النهر بأجمعها حكمًا مباشرًا ، بارتولد : المرجع السابق ، ص 451 .

(243) نفسه ، ص 462 ، 463 .

(244) عمل تغار بيك محمد بن سليمان الكاشغري بالتجارة في بداية حياته في بلاد التركستان ، وأثناء ذلك تقرب من الخواتين ورفع علم الوزارة وانشغل بهذا المنصب فترة قصيرة وعزل بسبب عدم القبول ، وذهب من التركستان إلى مرو شاهجان ودخل في زمرة ملازمي البلاط السنجري ، وعينه السلطان لإدارة ولاية بلخ وتحصيل أموالها ، وفي تلك الأثناء قدم خدمات جليلة للأمير قماج والي بلخ فدفع الأمير قماج مليون دينار للسلطان حتى فوض منصب الوزارة لمحمد بن سليمان الكاشغري ، ولبس محمد بن سليمان الكاشغري خلعة الوزارة. خواندمير : المرجع السابق، ص 513.

(245) خواندمير : المرجع السابق ، ص 513 .

على دخل كبير ويبيعون للفلاحين بسعر مناسب [246] ، وكانت العملات وخاصة الدراهم الفضية في "بنجهير" كثيرة لا حصر لها [247] ، ونظرًا لازدهار الحالة الاقتصادية كانت بلخ ترسل سنويًا أموالاً من غلاتها إلى خزانة السلطان وذلك لأن العائد من الزراعة كان أكثر مما يحتاج إليه الأهالي ، فيقول المقدسي : "ويحمل من غلاتها في كل سنة مال عظيم إلى خزانة السلطان زائدًا عما يحتاج إليه" [248] .

ومما يؤكد رخاء العيش في عهد السلاجقة أن السلطان ألب آرسلان (455 - 465 هـ / 1063 - 1072م) لم يفرض شيئًا من المكوس [249] على رعاياه واكتفى بالخراج الأصلي الذي كان "يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقًا بهم" [250] ، كما أن ابنه السلطان ملكشاه (465 - 485 هـ / 1072 - 1092م) ألغى كل المكوس ورسوم الطرق والجسور والرسوم الأخرى من جميع البلاد [251] ، أيضًا أعلن السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد (498 - 511 هـ / 1104 - 1117 م) في سنة 502 هـ / 1108 م إلغاء المكوس والرسوم في كل أنحاء مملكته [252]

ولقد وصلت الحال من الرخاء والثراء ورفاهية العيش في عهد السلطان السلجوقي "عضد الدولة ألب أرسلان" إلى أن ما نثر على الحاضرين يوم عقد قران ابنته "سفري خاتون" على ولي العهد "المقتدي بأمر الله" ابن الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة 464هـ / 1071 م ، كان من الجوهر [253] .

---

(246) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 51 .

(247) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 469 .

(248) المقدسي : المصدر السابق ، ص 301 ، 302 .

(249) المكوس من موارد بيت المال غير الثابتة ، وهي ضرائب غير شرعية لأن القرآن لم ينص عليها .

(250) ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 113 ، 163 .

(251) ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 113 ؛ آ . آشتور : "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى" ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، مراجعة أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، د . ت .

(252) آشتور : المرجع السابق ، ص 279 .

(253) النويري ، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد فوزي العنتيل ، ومراجعة محمد طه الحاجري ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1405هـ / 1985م ، ج26 ، ص 317 .

وتنوعت وجوه النفقات ويأتي على رأسها رواتب الجنود خاصة الجنود المسئولين عن حراسة الحدود ، فكان الحكام يقومون بتوصيلها لهم سنويًا [254] . ولم تكن رواتب الجنود نقودًا بصفة دائمة ، فقد كان السلاجقة يمنحون الإقطاعات العسكرية أحيانًا للجنود بدلاً من الرواتب أو كجزء منها [255]

أما عن العملة المتداولة ، فكان التعامل بالعملات المختلفة ، فعلى سبيل المثال كانت مرتبات الجنود في عهد السلطان ملكشاه بالدينار [256] ، وقد ضرب السلطان ملكشاه نقودًا عليها اسم "شمس الملة جعفر بن نصر" أحد ولاته ، أما السلطان سنجر فضرب نقودًا منقوشًا عليها اسمه مع بعض الأتابك مثل الايكيز ، وقزل أرسلان [257]. ونظرًا لكثرة معدن الفضة المستخرج من مناجم مدينة بنجهير ومناجم مدينة جارباية وغيرها ، فقد أمدت بلخ دور الضرب في الخلافة بكميات كبيرة من السبائك الفضية [258]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ازدهار الحالة الاقتصادية لبلخ في العصر السلجوقي .

ومما سبق يتبين لنا أن موقع بلخ الجغرافي المميز ، ووقوعها في الطريق التجاري العالمي وخصوصًا طريق الحرير ، ووفرة الثروات ، دفع السلاجقة إلى بسط سيطرتهم عليها والاهتمام بتنمية اقتصادها حيث كانت مصدرًا للثراء والغنى الذي ساد العصر السلجوقي .

---

(254) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 .

(255) بارتولد : المرجع السابق ، ص 455 .

(256) ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 113 .

(257) المقريزي : المصدر السابق ، ص 208؛ أنستاس الكرملي : رسائل في النقود العربية والإسلامية وعلم النميات ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1987 م ، ص 58 .

(258) آشتور : المرجع السابق ، ص 100 .